قوتها سريعا على يد السلطان محمد جلبي بن السلطان بايزيد الاول الذي كان أول من أحدث العساكر البحرية في الدولة وارسال الصرة السلطانية الى الحرمين الشريفين

اما الترك أمة حربية وما كانوا أشد بأسا من العرب وأين فتوحاتهم من فتوحات العرب مع أن مدتهم أطول من مدة دول العرب كلها والبلاد التي فتحها العرب هي التي عم فيها الاسلام وثبتت أصوله، وعلت فروعه ومعظم البلاد التي فتحها الترك كانت وبالا على الاسلام والمسلمين ولا تزال تنذرهم بالبلاء المبين. لا أقول إن تلك الفتوحات مما يعاب بها الترك ويذمون ولكنني أقول ان الفضل الاكبر في الفتوحات الاسلامية للعرب وان الدين انتشر بالعرب واعتز بهم فأساسهم أقوى اساس، ونبراسهم اضوء نبراس، وهم خير امة أخرجت للناس. ولا أنكر أن للترك فضلا، وذكاء ونبلا. ولا أحب أن أطيل القول في المقابلة بالفتوحات وما هو أكثر منها فائدة للاسلام والمسلمين فكل من له شمة من معرفة التاريخ الماضي والحاضر يعرف أن معظم البلاد التي تمكن فيها الاسلام هي مما فتحه العرب وانتشر الدين فيه بواسطة العرب. وسنأتي في مقالة أخرى على المقابلة بين الجنسين في العلوم والفنون والزراعة والتجارة وسائر أمور المدنية والعمران

﴿ الدين والدنيا والآخرة ﴾

(٣)

أثبتنا في المقالتين السابقتين أن العقل والنقل والفطرة البشرية، والاديان السماوية متفقة كلها على أن الله تعالى انشأ الانسان من الارض واستعمره

فيها ليسعد بها لا ليشقى، وشرع له الدين ليوقفه بطلبها عند حدود الاعتدال ويعلمه قرن التمتع بالنعم بشكر المنعم، وذلك بان يؤمن بأنه هو الواهب لها. ويجعل مصالحه الخاصة، منطبقة على المصالح العامة ويسترشد في عمله بسنن الله في شريعته وخليقته جميعا كما يعلمه ان يجعل الدنيا مزرعة للآخرة فيأخذ نفسه فيها بالعبادات والفضائل النفسية، والمعارف الروحية، التي تكمل بها السعادة في الدنيا، ويتأهل بها للسعادة في الآخرة. ولم ترد هذه التعاليم كلها على كمالها الا في الديانة الاسلامية خاتمة الاديان. وما أخذت أمة من الامم بدين سماوي الا وحسنت حالها بالاخذ به في حياتها الدنيا وارتقت عما كانت عليه قبل ذلك، خصوصا الاديان التي كانت قبل المسيحية وأقربها الينا اليهودية، فان الزهد في الدنيا والاعراض عنها لم يكن من تعاليمها ولم يعرف عندها قولا ولا عملا. وأما المسيحية فلم تكن الا اصلاحا في اليهودية وتتميما لها، فقد صرح القرآن حكاية عن المسيح عليه السلام انه قال (ومصدقا لما بين يديّ من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) ويروون عنه في الاناجيل انه قال ما جاء لينقض الناموس وانما جاء ليتممه. فمن حق النصارى ان يكونوا يهودا آخذين بالتوراة في عباداتهم ومعاملتهم مع زيادة زهادة في الدنيا واعراض عنها

وأما المسلمون فلقد كانوا على صراط الدين، في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن الراشدين من بعده وكانت الزينة والطيبات من الرزق في أول نشأة الاسلام بالدرجة التي يقتضيها ذلك الطور المعانق لطور البداوة حتى ان الامام علياً كرم الله وجهه كان يرى ان أكل مخ الحنطة (أي الحنطة المنخولة) من النعيم وهو أمير المؤمنين!! ولما فتحوا الممالك واستفحل

عمرانهم توسعوا في تناول الطيبات واستعمال الزينة كما هو شأن الحضارة وما كان الجمهور من الصحابة وا كابر التابعين ينكرون من هذا الا ما انتهى صاحبه الى السرف، وانتمس في الترف، لما يستعقبه هذا من الضعف عن حماية البيضة، والعجز عن تعزيز الامة. وربما أنكروا ذلك على من انتصب للارشاد وجعله الناس قدوة لهم فمثل هذا ينبغي أن يكون عزاء للبائس الفقير، وتسلية للعاجز المسكين. وصرح غير واحد بان النبي والخلفاء الراشدين كانوا يختارون شظف العيش في عامة الاوقات لاجل هذه الاسوة والقدوة

قال في الاحياء: ان يحيى بن يزيد النوفلي كتب الى الامام مالك بن أنس «بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمد سيد الاولين والآخرين. من يحيى بن يزيد بن عبد الملك الى مالك بن أنس. أما بعد فقد بلغني انك تلبس الدقاق، وتأكل الرقاق، وتجلس على الوطيء، وتجعل على بابك حاجباً، وقد جلست مجلس العلم وضربت اليك المطي وارتحل اليك الناس فاتخذوك اماماً، ورضوا بقولك، فاتق الله يا مالك وعليك بالتواضع. كتبت اليك بالنصيحة مني كتابا ما اظلم عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام»

فكتب اليه مالك «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم. من مالك بن أنس الى يحيى بن يزيد. سلام الله عليك. أما بعد فقد وصل الي كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والادب أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرا، وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. فأما ما ذكرت لي انى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطيء، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى، فقد قال الله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات

من الرزق » واني لأعلم ان ترك ذلك خير من الدخول فيه ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام »

فانظر كيف قيد يحيي الانكار على الامام مالك بقوله: وقد جلست مجلس العلم الخ كانه يقول ان الامام القدوة ينبغي أن يراعي حال أضعف الناس لاسيما في الطور التي كانت فيه الامة يومئذ. ولقد أنكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على معاوية ما كان فيه من الابهة والسمة عند ما كان أميرا في الشام فاعتذر معاوية بحالة البلاد والامة المحكومة وانها لاتهاب الحاكم اذا كان رث الهيئة فقبل عذره . وقد لبس النبي صلى الله عليه وسلم الطيالسة الكسروية ، والجبة الرومية، وغير ذلك من اللبوس الفاخرة لئلا يظن الموسرون ان اباحة ذلك في القرآن لاتنافي انه مذموم أو مكروه وان اجتنب السرف والمخيلة .

ولقد بالغ رجل واحد من الصحابة الكرام في التزهيد ورأى أنه يجب انفاق كل مازاد عن الحاجة فنفاه معاوية من الشام الى المدينة ونفاه عثمان الخليفة الثالث الى الربذة حتى مات فيها، وذلك خشية أن ينتشر رأيه بين الناس فيضعف همهم عن الكسب وعمارة الدنيا . ثم حدثت الفوضى العلمية والدينية في المسلمين عند ماشغل ملوك بني أمية ومن بعدهم زخرف الملك عن القيام بحقوق الخلافة فانتشرت التعاليم الفاسدة، والآراء والمذاهب التي كانت تنجم في زمن الراشدين فيبادرون لحصدها أو قلعها قبل أن يعلم بها جماهير الناس . ومن أضر ماحدث الغلو في التزهيد، وحمل الناس على الاعتقاد بان الدنيا ضرة الآخرة على الاطلاق وان كل عمل يطلب للدنيا يغضب الله تعالى . ومن كبر المصائب ان هذا التعليم كان ديدن الخطباء

والوعاظ والقصاص الذين لا يسمع العامة ارشاد الدين الا منهم وانما انتشر بين جميع الفرق الاسلامية فزرع أهله في قلوب الامة الاسلامية فسيل الكسل، ومقاومة ما تقتضيه الطبيعة والفطرة من الجد والعمل . ان الله تعالى زين للناس ما على الدنيا ليكون داعيا الى احسان العمل فيها كما قال (انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) وقد ورد في الحديث تفسير حسن العمل بالعقل أي ما يرشد اليه ، ولكن فريق المزهدين أو المكسلين فسروه بالزهد في الدنيا .

أخذ السواد من المسلمين هذه التعاليم بالقبول لانهم تلقفوها ممن يعتقدون بهم كمال الدين كالعباد والمتصوفة والوعاظ وتبعها تعليم آخر أشد منها ضررا وهو أن العلوم الدنيوية كالرياضيات والطبيعيات ويتبعها الطب والتشريح كلها مفسدة للعقائد، وقائدة الى الزندقة. وصارت هذه الآراء تقوى في الامة كلما ضعف العلم، وصار العلماء الراسخون يتحامون الظهور بابطال هذه الآراء والتعاليم خوفا من اساءة ظن العامة فيهم واتهامهم بالزندقة لانهم لم يدعوا اماما من أئمة المسلمين الا واتهموه في عصره بهذه أو ما يقاربها حتى ان منهم من عد الاشتغال بعلم المنطق كفرا: ذكر ابن الوردي في حوادث سنة ٦٣٩ من تاريخه ترجمة العلامة كمال الدين بن منية الذي فضله العلامة اثير الدين الابهري على الامام الغزالي وقال فيها ان ابن الصلاح الفقيه الشافعي المشهور سأل كمال الدين ان يقرئه المنطق سرا فقرأه عليه مدة ولم يفهمه، فقال كمال الدين يا فقيه المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن لان الناس يعتقدون فيك الخير وهم ينسبون كل من اشتغل به الى فساد الاعتقاد فكأنك تفسد عقائدهم ولا يصح لك من هذا الفن شيء. قال ابن الوردي وهو لغلبة العلوم العقلية على كمال الدين اتهم في دينه وهذه هي العادة، فتأمل قول

المؤرخ « وهذه هي العادة » . والمشهور عن ابن الصلاح أنه كان يحرم المنطق قال في السلم

فابن الصلاح والنواوي حرما وقال قوم ينبغي أن يعلما

فلينظر أي القولين أصح ؟ على أنه يمكن الجمع بأنه رجع عن التحريم بعد القول به

ومن غريب تقلبات الزمان أن العلماء كانوا في العصور السالفة هم الذين يرغبون في العلوم الدنيوية لعلمهم أن الدنيا سياج الدين ومزرعة الآخرة وكانت العامة على خلاف رأيهم. وأما في هذا العصر فقد انحط العلم حتى صار العلماء هم الذين ينفرون وينفرون عن هذه العلوم والفنون وصار قسم كبير من العامة يرغبون فيها ويحملون أبناءهم على تعلمها . والسبب في هذا ظاهر فان التطلع الى سعادة الدنيا هو مرمى أبصار جميع الناس والعلوم الدنيوية في القرون السالفة لم تكن من وسائل الترقي في الدنيا وانما كان العلماء مسوقون اليها بارشاد القرآن الطافح بالحث على النظر في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء ، وكانوا مكتفين من الثمرة بقوة الايمان ولذة العقل الذين فيها ولم يكن للعامة حظ من ذلك . أما العلم بالقرآن وما يرشد اليه من أنواع المعارف فقد ضعف في صنف العلماء وانحصرت فوائد هؤلاء الدنيوية في مناصبهم الدينية ، وأما العامة فانهم رأوا الفائدة فيها فأقبلوا عليها ، فكم من فقير حقير علم ولده فخرج موظفا أو مهندسا أو طبيبا فاستغنى بماله ، واعتز بجاهه.

وقد ساوى العلماء العامة في هذا الاقبال عملا وان كان منهم من يذمه قولا

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما تدر لها ثعل

كتب الشيخ محمد راضي البحراوي أحد أساتذة العلم في الازهر مقالات يذم فيها علم الحساب وتقويم البلدان وكتب غيره منهم يؤيد رأيه وزعما أن جميع شيوخ الازهر على رأيهما في ذلك ولكنني علمت من بعض أهل الازهر أن الشيخ محمد راضي هذا بل والاستاذ الاكبر شيخ الجامع يعلمان ولدهما هذه العلوم

يقول قائل إن التزهيد في الدنيا لا يؤثر في النفوس لكونه على خلاف سنن الفطرة ولم يوجد في الامة من الزهاد الذين تركوا الدنيا باختيارهم ظاهرا وباطنا لاجل

الآخرة الا النفر قليل كابراهيم بن أدهم (رحمه الله تعالى) وأكثر المنتحلين للتصوف المدعين الاعراض عن الدنيا التقرب من رضوان الله تعالى كانوا ومازالوا يطلبون الدنيا بهذه الاعمال لانهم وجدوها أقوى ذريعة المال والجاه وهم في هذا أبعد عن الزهد الحقيقي من الاغنياء لان الزهد عمل قلبي كما سنوضحه بعد . وقد فضحهم الائمة المحققون في التصوف كالغزالي وغيره فكيف تقول إن ذلك أضر بالمسلمين ؟

والجواب عن هذا واضح وهو على وجهين (أحدهما) أن من مضرته وجود الالوف من رجال الدين عباداً وعلماء لاعمل لهم وانما يعيشون عالة على الناس ومن الخلفاء الراشدين من كان صانعاً ومنهم من كان تاجراً . وما التكايا التي أحدثها المسلمون الا كالاديار عند المسيحيين، ولكنهم لا يوجبون على من دخلها أن يكون راهبا طول حياته و (ثانيهما) أن المضرة قد ظهر أثرها في مجموع الامة فعلا حتى هبطت من الاوج الى الحضيض . وهكذا شأن التعاليم النافعة والمضرة لا يعرف تأثيرها الا بمثل ذلك . وان شئت تعليلا عقليا يثبت لك تأثير الغلو في التزهيد باسم الدين على ما فيه من مخالفة سنن الفطرة فتأمل في حال كل من يعمل عملا تقتضيه الطبيعة والفطرة اقتضاء حتما أو غير حتم وهو يعتقد سوء مغبته تجده في عمله ضعيفا لا يبلغ الغاية منه . أنظر لمن يحمله الغضب على الضرب وهو يخاف الله أو عقوبة الحاكم كيف يكون ضربه دون ما تبلغه قوته لولا ذلك الخوف وربما يكون في وقت الضرب ناسيا لمراقبة الله وغير متفكر في عقوبة الحكومة ولكن نسيان ما انطوت عليه النفس وعدم ملاحظته والتفكر فيه لا يبطل أثره . وتأمل كيف ان العرب ما أتقنوا فن الموسيقى في أيام حضارتهم مع اشتغالهم به مجاراة للطبيعة المائلة اليه ، وما ذلك الا لان فقهاءهم يذمونه ويحرمون بعض آلاته

باب التربية والتعليم

﴿ أميل القرن التاسع عشر ﴾

(٧) من هيلانه الى أراسم في ٣ ابريل – سنة – ١٨٥

قد أتاني السيد ... بشيء من أخبارك بعد طول تطاعي اليها فاطمأن قلبي قليلا